الوثيقة

دورية تاريخية محكمة

يصدرها
مركز الوثائق التاريخية
بدولة البحرين

العدد السادس عشر السنة الثامنة
جمادى الثانية ١٤١٠ هـ يناير ١٩٩٠ م

التهديدُ البرتغالي لتجارة البحر الأحمر

بقلم : بشير احمود كاظم

تعد رحلة فاسكودي جاما الأولى في سنة ٩٠٣ هـ/١٤٩٧ م الى الهند رحلة استطلاعية عرف من خلالها ان العرب يسيطرون على سواحل شرقي افريقيا والجزر القريبة منها وعلى معظم التجارة في غرب المحيط الهندي رغم ان دي جاما لم ينجح في كسب ثقة حكام الموانيء التي زارها .

و في مستهل القرن السادس عشر الميلادي (١٤٩٩ ـ م ١٥٠٩ م) توالت الرحلات البرتغالية في المحيط الهندِي فارضة سيطرتها في

منطقة كان النشاط التجاري فيها مقصورا على العرب . اذ تابع ملك البرتغال جهود فاسكودي جاما بارسال حملة أخرى في مارس من عام ٩٠٦ هـ/ ١٥٠٠ م بقيادة بدرو الفاريز جابرال (P.A. Gabral) مهمتها الحصول على قاعدة للسفن البرتغالية في الشرق سواء أكان ذلك عن طريق المفاوضات أم باستخدام القوة المسلحة [١] وقد أفلح جابرال في اقامة مركز برتغالي في كاليكوت سنة ٩٠٧ هـ/ ١٥٠١ م [٢] وأبلغ ملكها برسالة يحرم فيها على العرب الاقامة داخل حدود مملكته كما عرض عليه شراء ما يبيعه للعرب بثمن أفضل [٣] الا ان ملك كاليكوت رفض طلب القائد البرتغالي جابرال ، مما أدى الى مهاجمة الاسطول البرتغالي لمدينة كاليكوت اذ أمطرها بنيران المدفعية البرتغالية وأحرق (٢٩) قطعة بحرية للتجار المصريين وكان بضمنها سفينة السلطان الغوري وهي محملة بالتوابل وتروم الابحار الى ميناء جدة وجميعها كانت راسية في الميناء ومحمله بمختلف السلع التجارية [٤] وقد استنجد ملك كاليكوت بالسلطان قانصوة الغوري سلطان مصر الا ان تأخر الاسطول المصرى في الوصول الى الهند اضطره الى عقد معاهدة صلح مع البرتغاليين الذين عادوا بعدها الى لشبونه ومعهم ١٣ قطعة بحرية مليئة بالبضائع الشرقية الثمينة [٥] .

ونرى من خلال ما تقدم ان سياسة البرتغاليين قد تغيرت بعد ان ثبتوا أقدامهم في المراكز التجارية الهندية المهمة حيث كشفوا عن وجههم الحقيقي وعبروا عن أهدافهم الصليبية المبيتة ضد المسلمين ، عندما بدأت سفنهم تجوب المحيط الهندي والبحار العربية فما من سفينة عربية عثرت عليها الا ونهبتها وقتلت من فيها كما أصبحت تغير على شواطىء الجزيرة العربية وتقتل وتحرق ثم تهرب [٦] وغدت الأطماع البرتغالية أشد ضراوة وعبروا عن شراستهم ووحشيتهم واستخدموا أشد أنواع الارهاب والقسوة في معاملاتهم مع الموانىء والسفن العربية التى كانوا يعثرون عليها [٧] ولعل ما يشير الى معاملتهم الوحشية الوثائق البرتغالية التى أوردها جوا دي بروس والتى عبر فيها عن أحقادهم الصليبية ، معترفا بأعمالهم الوحشية حين قال : « عندما غزا الكفار ـ وخاصة العرب منهم ـ وكانوا قد تركوا بلادهم الواقعة في الشرق ووفدوا الى بلادنا في الغرب ... ثم قضت ارادته ان يمارس البرتغاليون حقهم الطبيعي هذا بعد انقضاء قرون عديدة وبالطريقة ذاتها بحد السيف .. ليس في الجزيرة العربية الحدباء حيث دمروا مدنها وأحرقوا منازلها وخطفوا نساءها وأطفالها واستولوا على الثروات والأوطان فيها فقط .. ولكنهم غزوا الفرس .. وقد دفع الفرس ثمن اهانتهم لاسبانيا لأنهم اعتنقوا ديانه اولئك العرب المتخلفين » [٨] .

ومن خلال ما تقدم يتضح ان معاملة البرتغاليين لم يكن لها مثيل في القسوة وانعدام الروح الانسانية ، وهناك الكثير من الشواهد والأمثلة التى أوردها المؤرخون والتى تدل على وحشية البرتغاليين وقسوتهم ، ومن الأمثلة على ذلك ما قام به البوكيرك ، عند مهاجمته «قلعة» على الساحل العماني اذ انه أشعل النار في المدينة وأغرق سبعا وعشرين سفينة تجارية كانت راسية في الميناء وتعرض أهل عمان لأبشع أنواع التعذيب على أيدى البرتغاليين الذين قتلوا الأطفال وشقوا بطون السيدات وقطعوا آذان الرجال وأنوفهم وأحرقوا المساجد المقامة على ثغور ساحل عمان » [٩] .

أصبح التفوق البرتغالي في مياه المحيط الهندي واضحا على الرغم من بعد البرتغاليين عن بلدهم وقلة عددهم واتساع المنطقة التى كانوا يهدفون للسيطرة عليها الا انهم تمكنوا من فرض الحصار على التجارة الاسلامية ، واستطاعوا ، مهاجمة السفن العربية ومنعها من المتاجرة في المحيط الهندي ، وعند التطلع لمعرفة تلك الأسباب يبدو واضحا تفوق البرتغاليين عسكريا وامتلاكهم السفن الحديثة المزودة بالمدافع والبنادق التى لم تكن معروفة في تلك الاقاليم [١٠] .

وفي عام ٩٠٨ هـ/ ١٥٠٢ م جهز ملك البرتغال اسطولا يتألف من عشرين سفينة بقيادة فاسكودي جاما ، تحرك من البرتغال واتجه الى المحيط الهندي [١١] وكانت هذه هي الرحلة الثانية بالنسبة لدى جاما ، حيث كان يحمل معه تعليمات من أسياده البرتغاليين بتخريب موانىء العرب وتحطيم مراكبهم وسد مدخلي البحر الأحمر والخليج العربي في وجه التجارة البحرية [١٢] ومنع تجارة الشرق من الوصول الى الموانىء المصرية

وكذلك منع السفن المصرية من الوصول الى الهند حتى يتسنى للبحرية البرتغالية السيطرة على تجارة الهند [١٢] ومن أجل تحقيق ذلك الغرض أبقى دي جاما خمس سفن من الاسطول الذى قاده الى الهند ، تجوب مياه المحيط الهندي للقرصنة البحرية وأمرهم بسد مدخل البحر الأحمر أمام السفن العربية الداخلة والخارجة منه [١٤] .

مضت البرتغال بتنفيذ مخططها الاستعماري بعد ان استحدثت منصب نائب الملك البرتغالي في الهند ، حيث أصدر ملك البرتغال في عام ٩١٠ هـ/ ١٥٠٤ م تعليماته بتولي فرانسسكو داليدا هذا المنصب ، وبهذا التاريخ فإن البرتغال تعد أول حكومة استعمارية أوروبية انشأت مستعمرة في الشرق الأقصى ، لحماية مصالحها هناك وتحقق الاحتكار التجاري لسلع الشرق والسيطرة على مصادرها في الهند .

وتتابعت الحملات البرتغالية لترصين مركزهم هناك ، ففي عام ١٥٠٥ م خرج من البرتغال اسطول تعداده (٢٠) سفينة تحمل على ظهرها ١٥٠٠ محارب من بينهم عدد من الجنويين والبنادقة والألمان ، وتم لهم احتلال سفالة وكلوه ، وممباسا التى قاتلهم أهلها قتالا شديدا ، ولم يسلم من أيدي البرتغاليين في ساحل شرقي افريقيا من التخريب والتدمير سوى أهل مالندى الذين تعاونوا معهم في احتلال تلك السواحل [١٥] .

وفي عام ٩١٢ هـ/ ١٥٠٦ م عزز ملك البرتغال الحملة السابقة بحملة أخرى مؤلفة من أربع عشرة سفينة [١٦] ، فرض البرتغاليون من خلالها سيطرتهم على سواحل شرقي افريقيا وصاروا يحكمون الجزء الجنوبي منها والمتمثل في سفالة وموزمبيق وكلوه حكما مباشرا تدعمه حصونهم وأساطيلهم المتواجدة في المنطقة ، أما الجزء الشمالي من هذه السواحل ، فكانت سيطرة البرتغاليين عليه غير مباشرة ، اذ ان ذلك لم يتعد وجود جماعات من المستعمرين والتجار دون وجود حاميات وحصون ، ولكنهم كانوا يزورون هذه الموانىء بأساطيلهم ويجمعون الجزية من السلاطين والشيوخ [١٧] ، وأخذت السفن البرتغالية تفرض حصارها على السفن العربية وتتعقبها في مياه المحيط الهندي الى ان يتم لها أسرها أو حرقها أو اغراقها زيادة على نهب بضاعتها وقتل ملاحيها ، مما قلل من ظهور هذه السفن أمام الساحل الهندي [١٨] .

واصل البرتغاليون زيادة نفوذهم البحرى وسيطرتهم على التجارة الشرقية ، وسعوا جاهدين في سبيل تنفيذ سياستهم التوسعية ، فاسندوا الى القائد البرتغالي البوكيرك مهمة تنفيذ المخطط البرتغالي في البحر الأحمر والخليج العربي ، فجهز البوكيرك حملة عسكرية بقيادة نائبه (كرستان داكنها) لاحتلال جزيرة سوقطرة لاتخاذها قاعدة بحرية تنطلق منها السفن البرتغالية لقطع الطريق أمام السفن التجارية العربية القادمة الى خليج عدن ، وتم لهم ذلك في سنة ٩١٣ هـ/ ١٥٠٧ م بعد قتال شديد مع أهالي الجزيرة [١٩] .

وفي آب من العام نفسه قام البرتغاليون بمهاجمة السفن التجارية الاسلامية في الطريق الى «هرمز» والهند وقطعوا الطريق

التجاري عبر الخليج العربي وهاجموا مسقط وخورفكان [٥] ونهبوا السفن واحرقوها وأسروا بعض التجار وعذبوهم ومثلوا بهم أبشع صور التمثيل [٢٠] وبعد احتلالهم لجزيرة سوقطرة اتضح لهم بأن عدن أكثر أهمية من هذه الجزيرة ، وان احتلالها يهدد تجارة البحر الأحمر بالانهيار ويشل حركتها

وبعد ان عين الفونسو البوكيرك حاكما عاما للقواعد والمراكز البرتغالية على ساحل الهند الغربي في سنة ٩١٥ هـ/ ١٥٠٩ م [٢١] زاد في نشاطه لتحقيق الأهداف الاستعمارية الجديدة والسيطرة على المواقع الاستراتيجية والاقتصادية المهمة وفي اطار هذه السياسة التوسعية احتل البوكيرك في سنة ٩١٦ هـ/ ١٥١٠ م مدينة (جوا)[٥] في الهند وجعلها مركزا للحكومة البرتغالية هناك [٢٢] . ثم أعقب ذلك بالاستيلاء على ملقا عام ٩١٧ هـ/ ١٥١١ م في الطريق الجنوبي الشرقي من آسيا والتي تعد من أعظم قواعد التجارة العالمية حيث تتجمع فيها منتجات الهند الصينية بصفة خاصة [٢٣] .

وبرز من خلال سياسة البوكيرك التوسعية انه يتصف بنزعة عدوانية متعصبة ضد المسلمين، وانه كرس جهوده للهيمنة البرتغالية في المحيط الهندى وذلك بالاعتماد على فكرة السيطرة على كل المضايق البحرية التي تقود الى الهند [٢٤] كما سعى للحصول على حلفاء محليين لتحقيق أغراضه العدوانية على البلاد الاسلامية من خلال اقامة العلاقات مع البلاط الحبشي في عام ٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م [٢٥] ، وبعد ان سيطر البوكيرك على الطريقين الرئيسيين للتجارة الشرقية أمر بمطاردة السفن الاسلامية في المحيط الهندي من أجل طرد المسلمين من المراكز التجارية الهندية والافريقية ومنعهم من مزاولة النشاط التجاري في المحيط الهندي [٢٦] .

وفي بداية شهر شباط من عام ٩١٧ هـ/ ١٥١٣ م أرسل البوكيرك حملة بحرية مؤلفة من عشرين سفينة حربية تحمل على ظهرها ٢٥٠٠ محارب ، خرجت من (جوا) مركز انطلاق البرتغاليين في المحيط الهندي واتجهت نحو عدن ، وبعد وصول الاسطول البرتغالي الى ميناء عدن ، استولى على السفن الراسية فيه ثم قصفوا المدينة بمدفعيتهم ، مما اضطر حاكم عدن الى العمل على حماية المدينة من تدمير البرتغاليين فعمد أول الأمر الى استخدام اسلوب المهادنة ، فأرسل بعض الهدايا الى البرتغاليين وطلب عقد الهدنة معهم [٢٧] ، الا ان البرتغاليين رفضوا اقتراح حاكم عدن وانذروه بتسليم المدينة لهم ، ومنحوه مهلة حتى اليوم التالي [٢٨] ولكن حاكم عدن الظافري رفض تسليم المدينة مما دفع البرتغاليين الى تسلق الأسوار والنزول الى

---

* مسقط وخورفكان ميناءان مهمان في مدخل الخليج العربي .

* جوا : احد الموانيء المهمة في الهند وتطل على ساحل ملبار المطل على بحر العرب .

المدينة وعند ذلك قام أهالي عدن بالدفاع عنها حيث انهم استبسلوا استبسالا رائعا وقاوموا الذين تسربوا الى داخل المدينة واضطروهم للانسحاب منها الى ظهور سفنهم بعد ان فشلوا في الاستيلاء على عدن وفضلوا الانسحاب منها والاتجاه شمالا نحو باب المندب [٣٠] ، وقبل ان ينسحبوا من ميناء عدن أطلقوا نيران مدافعهم على المدينة وأحرقوا السفن الراسية في الميناء ثم توجهوا بعدها نحو جزيرة كمران [*] (قمران) وسيطروا عليها في نيسان من عام ٩١٩ هـ/ ١٥١٣ م [٣١] . ومما يذكر بأن البرتغاليين كعادتهم استخدموا سياسة القسوة والارهاب والقتل مع سكان هذه المدينة ، واستقروا فيها نحو أربعة أشهر وهم في طريقهم الى ميناء جدة لغرض تدميره والعبث بالمقدسات الاسلامية ، الا انهم خابوا في مسعاهم هذا بسبب تعرض اسطولهم لعاصفة شديدة شتتت سفنهم والحقت الدمار بها مما اضطرهم الى العودة ثانية الى جزيرة كمران [٣٢] ومنها هاجموا ميناء زبلع وأشعلوا النيران في السفن الراسية فيه ودمروها ، كما قصفت مدافعهم ميناء عدن بعد عودتهم الى الهند [٣٣] .

وعلى الرغم من ان البوكيرك لم يستطع تحقيق نصر عسكري حاسم في البحر الأحمر الا انه استطاع ان يتوغل أول مرة في تلك المنطقة مما ساعد على التعرف على طبيعتها ورسم خطط العمل لمن يأتي من بعده للسيطرة على عدن وإغلاق مضيق البحر الأحمر [٣٤] .

وفي عهد البوكيرك أيضا تم الاتصال بين الحبشة والبرتغال لغرض تنسيق الجهود والتعاون ضد المسلمين وخاصة المماليك الذين كانوا يساعدون «الامارات الاسلامية» التى عاشت صراعا دائما مع الحبشة [٣٥] .

وفي عام ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧ م حشد البرتغاليون اسطولا مؤلفا من أربعين سفينة ، تحمل على ظهرها حوالي ألفين من المقاتلين ، وأوكلت قيادة هذه الحملة الى القائد البرتغالي لوبوسواريز دي البرجوريا (Lopo Soures De Allbergoria) [٣٦] ، وكان هدف هذه الحملة البرتغالية مهاجمة الاسطول المصري في البحر الأحمر وتدميره ومهاجمة ميناء جدة أيضا والوصول الى الحبشة [٣٧] ، وتزامنت هذه الحملة مع النزاع الذى حصل بين السلطان عامر بن عبدالوهاب الطاهري سلطان اليمن وبين القوى البحرية المصرية التى كانت بقيادة الأمير حسين الكردي ، وحاول البرتغاليون استغلال الموقف وأعلنوا أنهم يريدون مساعدة شعب عدن ضد المصريين [٣٨] وقد استقبلوا من قبل حاكم عدن مرجان الظافري [*] وأجابهم لما طلبوه من المؤن والمرشدين البحريين عندما كانوا متوجهين

---

* كمران : جزيرة كبيرة مشهورة في البحر الأحمر مقابلة للساحل اليمني .

* كان الأمير مرجان حاكما «لعدن» في أيام السلطان عامر بن عبدالوهاب ثم استمر في منصبه بعد مقتل هذا السلطان حتى توفي بها سنة (٩٢٧ هـ/ ١٥٢١ م) وقد أطلق عليه مرجان الظافري نسبة الى لقب السلطان عامر (سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ، ص٢١) .

لغزو جدة ، ويفسر بعض الكتاب والمؤرخين استقبال الأمير مرجان الظافري للبرتغاليين وتلبية حاجاتهم والتعاون معهم بسبب خوفه من مهاجمتهم عدن وتدميرها في حالة رفض طلبهم [٣٨] ولكن البرتغاليين فشلوا في حملتهم هذه كما فشلوا في حملاتهم السابقة ، لأنهم وجدوا الاسطول المصري راسيا في ميناء جدة ، وقفلوا راجعين الى جزيرة كمران بعد ان خربوا ميناء زيلع ، وبعد ذلك شتت اسطولهم وشقت الرياح بعض سفنهم ومات عدد كبير منهم في البحر الأحمر [٣٩] ، ويذكر في هذا المجال ان البرتغاليين اتهموا سواريز باضاعة الفرصة التى سنحت لهم في الاستيلاء على عدن ، كما ان ملك البرتغال يرى ان الفشل الذى أصاب البرتغال في عدم تحقيق أهدافها في البحر الأحمر كان بسبب تصرفات سواريز الذى عزله عن منصبه وسحبه من الهند الى البرتغال في ٢٠ من كانون اول سنة ١٥١٨ [٤٠] .

وخلف البوكيرك قائد برتغالي جديد أشد قسوة منه وهو (ديوجو لوبيز دي سكويرا) (Diogo Lopes De Squeira) ويذكر ان سكويرا عمل على تطوير سياسة البرتغال وتوسيعها في المحيط الهندي ، وسمح للسفن البرتغالية التجارية بالمتاجرة مع بلدان شرق افريقيا والهند ، وأمن الحماية لها مما زاد من عددها هناك بحيث انها تمادت في أعمالها وتحولت من سفن تجارية الى سفن قرصنة بحرية ، تنهب السفن التجارية غير البرتغالية التى تعثر عليها وتغير على الشواطىء [٤١] ، وعلى أية حال فقد كان القادة البرتغاليون الذين خلفوا البوكيرك أكثر وحشية منه في معاملتهم لأهالي المناطق التى سيطروا عليها الى الدرجة التى خاطب فيها أهالي المناطق ملك البرتغال باعادة البوكيرك اليهم حيث انهم كانوا يعتقدون بأنه حي ولم يمت [٤٢] .

وبعد ان زاد نشاط البرتغاليين البحري وتوسعت سيطرتهم على أطراف مترامية من المحيط الهندي وشرقي افريقيا عمدوا الى اتباع سياسة استعمارية جديدة تتلاءم وامكانياتهم البشرية [*] وعلى هذا الأساس فقد صور البرتغاليون سياستهم الاستعمارية وجعلوها تعتمد على ثلاثة محاور أساسية نذكرها فيما يأتي :

المحور الأول :

ويتضمن السيطرة على الطريقين الرئيسيين للتجارة الشرقية بعد إغلاق منفذيهما المؤديين للبحار العربية والمتصلين بمياه المحيط الهندي ، في وجه التجار والملاحين العرب والمسلمين ومطاردة السفن الاسلامية في المحيط الهندي واغراقها ، والعمل على طرد التجار المسلمين من المراكز التجارية الهندية والافريقية ومنعهم من مزاولة النشاط التجاري في المحيط الهندي .

المحور الثاني :

وهو استيلاؤهم على المحطات التجارية المهمة في المحيط الهندي وعلى ساحل مالابار

* كانت البرتغال لا تمتلك أعدادا بشرية كبيرة تسمح بتهجيرها الى المناطق التى احتلتها وتسكينهم على شكل مستوطنات بعيدة عن الوطن الأم حيث تعداد نفوسها في القرن السادس عشر الميلادي لا يجاوز المليون نسمة (الشناوي : المصدر السابق ص٦٢٢) .

مثل مدينة جوا (Goa) ومدينة ديو (Duo) وغيرهما من المراكز التجارية المهمة وانشاء قواعد عسكرية فيها لاسناد الاسطول البرتغالي أثناء تحركاته في المحيط الهندي لفرض السياسة الاحتكارية بالقوة وعدم السماح للسفن الاسلامية بممارسة أي نشاط ملاحي أو تجاري في هذه المنطقة .

المحور الثالث :

وهو فرض سيطرتهم على المراكز التجارية الاسلامية الواقعة على الساحل الشرقي للقارة الافريقية والتى أشرنا اليها في الصفحات السابقة من هذا البحث والتى تطل على المحيط الهندي ، وجعلوا منها مراكز تجارية لهم وقواعد عسكرية لامداد اسطولهم أثناء تحركاته في المحيط الهندي [٤٢] .

واستطاع البرتغاليون بعد اتباع هذه السياسة احتكار التجارة الشرقية واحتكار نقلها أيضا الى أوروبا عن طريق رأس الرجاء الصالح ، مما أدى الى الانهيار الاقتصادي السياسي الذى أصاب القوى المحلية المسيطرة على سواحل البحر الأحمر وموانئه وبشكل خاص المماليك والطاهريون [٤٣] .

ولعل الحملات البرتغالية المتعاقبة أسفرت عن نتيجتين خطيرتين أثرتا في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية للعرب في تلك المنطقة هما :

١ ـ اعتبار وصول البرتغاليين الى المحيط الهندي وشرقي الجزيرة العربية بعد معرفتهم لطريق رأس الرجاء الصالح بداية للأطماع الأوروبية الاستعمارية في هذه المنطقة زيادة على ان نشاطهم البحري قد فتح لهم آفاقا جديدة لم يعرفوها من قبل ، وذلك انهم أدركوا الأهمية البالغة لشرقي الجزيرة العربية من النواحى الاقتصادية والسياسية وكان وجودهم في المنطقة قد وضع نهاية لحصر الازدهار التجاري والملاحي العربي والاسلامي في شرقي الجزيرة العربية مما أصابه بالركود والانكماش [٤٤] نتيجة للسياسة الاحتكارية العدائية التى فرضها البرتغاليون على الحركة التجارية والبحرية للبحر الأحمر .

٢ ـ والنتيجة الثانية التى جاءت بها هذه الحملات البرتغالية هي انتقال مسرح الصراع السياسي والديني بين البرتغاليين والمماليك من منطقة البحر المتوسط الى الساحل الشرقي لافريقيا والهند وشرقي الجزيرة العربية [٤٥] ، وعمدوا الى احراق المدن الاسلامية والمساجد ، والتنكيل بالسكان المسلمين والاستيلاء على السفن التجارية والسفن التى تحمل الحجاج الى بلاد الحجاز وقاموا بأسر ركابها وتعذيبهم وقتل بعضهم واغراق بعضهم الآخر [٤٦] .

وعلى أية حال فقد كان الوجود البرتغالي في الشرق ضربة قاصمة للنشاط التجاري العربي والاسلامي في البحر الأحمر والمحيط الهندي كما كان له الأثر البالغ على الأوضاع السياسية والاجتماعية للعرب والمسلمين في سواحل افريقيا الشرقية وجزيرة العرب والبحر الأحمر وشمال المحيط الهندي ، وبالتالي القضاء على دولة المماليك في مصر .

موقف القوى المحلية من الغزو البرتغالي

١ . موقف المماليك :

كانت الجهود البحرية البرتغالية تهدف الى تحقيق مطامع اقتصادية وأخرى سياسية ومدفوعة بعوامل دينية صليبية كانت امتدادا لتلك الحرب الصليبية التى استمرت طويلا بين الشرق والغرب ، وكانت

هذه الجهود تسير بتأييد وحماس من قبل البابوية [١٨] ، لذا نراهم يتبعون في تحقيق ذلك أقصى أنواع القرصنة البحرية العسكرية ، وكما ذكرنا سابقا فإن البرتغاليين ركزوا في خطتهم على تحقيق الحصار الاقتصادي على مصر من ناحية الجنوب والسيطرة على مواطن التوابل وانتزاع احتكارها من العرب وتحويلها الى لشبونه مباشرة ، وحرمان مصر والبندقية من أهم مورد لها. وذلك لاضعاف مصر ، اقتصاديا وحربيا حتى تصبح عاجزة عن التصدي لأي عمل برتغالي ، حيث ان المماليك في مصر يمثلون القوة الاسلامية الكبرى في المنطقة وهي حاملة لواء الجهاد ضد الصليبيين [١٩] .

وكانت هذه التطورات الاقتصادية والسياسية في المنطقة بداية للصراع بين المماليك والبرتغاليين اذ ان دولة المماليك ، كانت من أولى الدول التى تأثرت اقتصاديا بتحول طرق التجارة الى الحد الذى أصبح فيه مجيء السفن التجارية الى موانىء مصر نادرا ، وأصبح البنادقة لا يجدون ما يحملونه من التوابل والبضائع الشرقية الى أوروبا [٢٠] .

وذكر ابن اياس بأن هذه التجارة قد اخذت من العرب الذين كانوا بالأمس سادتها كما أشار الى نقص دخل الدول التى كانت تمر بها التجارة نتيجة للهجمات البرتغالية على موانىء البحر الأحمر الجنوبية [٢١] ولذلك بدأ السلطان المملوكي في اتخاذ الاجراءات اللازمة لايقاف البرتغاليين عند حدهم ولانقاذ مصر من الانهيار الاقتصادي الذى تعرضت له ، وقام السلطان الغوري في سنة ٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م باعداد حملة بحرية مهمتها تقوية الحكم المملوكي في منطقة البحر الأحمر وتحصين ميناء جدة ثم الاندفاع الى الهند للقضاء على البرتغاليين هناك [٢٢] وفضلا عن جملة العوامل التى حركت السلطان الغوري لمواجهة الغزو البرتغالي ، فان استنجاد الأمراء الهنود المسلمين بحكومة مصر كان من العوامل المهمة التى شجعت السلطان الغوري على اعداد هذه الحملة [٢٣] وذكر ابن اياس ما قام به ملوك الهند من ارسال الرسل الى السلطان الغوري لاغاثة المسلمين من عبث البرتغاليين الذين كانوا ينهبون اموال الناس ويلحقون بهم الأذى [٢٤] ويذهب المليباري الى أبعد من هذا عندما أشار في تحفة المجاهدين الى عبث البرتغاليين حين قال : «امتهنوا المصاحف وداسوها بأقدامهم وأحرقوها وحاولوا تنصير المسلمين ، واغرائهم بالمال والنساء وقتلوا الحجاج ، أو باعوهم عبيدا ، نساء وأطفالا ولم يأنفوا من قتل العلماء [٢٥] .

وقد وردت الى السلطان الغوري رسائل من ملك الهند ، اذ بعث كل من السامري صاحب قاليقوط [٢٦] ، ومظفر شاه بن محمد شاه سلطان كجرات* [٢٧] برسائلهم يستغيثون بها السلطان المملوكي قانصوة الغوري لتدارك الموقف واتخاذ الاجراءات الكفيلة بتخليصهم من المخاطر الى تعرضت لها بلادهم وتجارتهم والعمل على تأمين الملاحة في المحيط الهندي والبحر الأحمر وبالوقت نفسه فقد كتب صاحب اليمن السلطان عامر بن عبدالوهاب رسالة الى حكومة المماليك يطلب امداده بالآلات

* تعد كجرات أهم الممالك الاسلامية على الساحل الهندي الغربي وهي تحتل أقصى شمال الساحل ، وعاصمة هذه السلطنة ، أحمد أباد ، أما أهم موانئها فهي كمبايا وديو وسورات . (سالم : الفتح العثماني الأول اليمن ، ص٦٠) .

والمدافع والوقوف في وجه البرتغاليين [٥٨] .

ومن الملاحظ ان هذه الممالك الاسلامية عندما أحست بالخطر الذى هدد مصالحها ، استنجدت بالسلطان الغوري وذلك لأن دولة المماليك في تلك الفترة كانت تمثل أكبر قوة اسلامية في المنطقة لامتلاكها الأسلحة النارية التى لا توجد عند غيرها من القوى المحلية في المنطقة كما انها كانت أكبر دولة ذات مصالح اقتصادية مباشرة مع الهند [٥٩] .

اقلع الاسطول المملوكي من ميناء السويس في ٦ جمادى الآخرة من سنة ٩١١ هـ/ المصادف الرابع من تشرين الثاني لسنة ١٥٠٥ م [٦٠] ، وعين قانصوة الغوري الأمير حسين الكردي قائدا له ، حيث كان هذا الاسطول مؤلفا من خمسين سفينة ، ولم تشر المصادر التاريخية الى عدد جنود هذه الحملة ، ويذكر انهم كانوا من المماليك السلطانية وعدد من أولاد الناس (أبناء المماليك) الذين يجيدون استخدام الأسلحة النارية [٦١] وكان المغاربة يؤلفون أغلب أفراد هذه الحملة لأنهم كانوا ذوي خبرة في القتال البحري ، واستخدام المدافع فضلا عن كونهم بحارة ماهرين [٦٢] .

ويروي ابن اياس بأن حملة حسين الكردي المتوجهة الى جدة قد اصطدمت بأمير ينبع يحيى بن سبع وقتلت عددا كبيرا من اتباعه وأحرقت الدور التى على ساحل البحر الأحمر في ميناء ينبع وخربوا الدكاكين وشتتوا العربان [٦٣] ويبدو لي من خلال هذا الحدث ان أمير ينبع لم يكن خاضعا لسلطة المماليك في مصر قبل مجيء حسين الكردي الذى حسم الموقف في ينبع لصالح دولة المماليك وتوجه الى جدة لغرض تحسين مينائها وحمايته من خطر البرتغاليين الذين ما لبثوا ان أعلنوا عزمهم **لمهاجمة المدن** المقدسة وتدميرها ، وما ان وصل الأمير حسين الكردي الى جدة حتى باشر ببناء سور ضخم ذي أبراج عالية حول مينائها [٦٤] وأشارت المصادر التاريخية الحديثة الى ان الأمير حسين الكردي قد بالغ في بناء سور جدة حيث انه هدم كثيرا من بيوت الناس التى تقع بالقرب من موضع السور واستخدم عامة الناس في البناء زيادة على الاعداد الكبيرة من البنائين والنجارين وغيرهم من الفنيين الذين جلبهم معه الى جدة ، واستطاع ان يتمم بناء بناء السور والأبراج في أقل من عام وذلك في ذي الحجة من سنة ٩١٢ هـ/ ١٥٠٧ م [٦٥] .

ومن جدة توجه الكردي الى «سواكن» فاستولى على مينائها دون ان يقاوم أهلها [٦٦] وأقام بعض الاستحكامات فيها من أجل تأمين البحر الأحمر ثم توجهت الحملة الى الموانىء اليمنية ، فمرت بجيزان ثم بجزيرة كمران الى (المخا) بعدها استقرت بعض الوقت في ميناء عدن ، بعد وصولها اليه في ربيع الآخر من عام ٩١٣ هـ/ ١٥٠٧ م [٦٧] .

وقد أوضح حسين الكردي لوالي عدن ان الغرض من الحملة التوجه الى الهند لمحاربة البرتغاليين [٦٨] كما طلب أن يمده بالطعام والمؤن اللازمة لذلك فأجابه الوالي لما أراد وأمر بأن يأخذ من عدن ما يحتاج اليه لأنه أعطى وعودا سابقة للمماليك بمساعدة الاسطول المصري في حربه مع البرتغاليين [٦٩] وقد وصف المؤرخ اليمني أبو مخرمة الذى عاصر الفترة موضوع البحث الاستقبال الذى قوبل به حسين الكردي في عدن حيث قال : «وفي الشهر المذكور ربيع الآخر سنة ٩١٣ هـ/

١٥٠٧ م) كان وصول الأمير حسين المصري في ثلاث بومات وثلاثة أغربة من جدة الى الجهات اليمانية ، ولم يعلم احد مقصوده حتى مر بباب المندب ، فلما قرب من مدينة عدن ، أرسل قاصدا من قبله في سنبوق الى الأمير مرجان الظافري ، يستأذن في الدخول الى (حقات) ، فاذن له ، فدخل في غاية ما يكون من الأدب .. فلما استقربالبندر ، أرسل اليه الأمير مرجان بسؤاله ، النقيب عبدالقادر فرج النجاشي والنقيب جابر البعداني ، فلما وصلا اليه أكرمهما وكساهما ، وقال بلغا الأمير مني السلام وعرفاه ، لولا اني مأخوذ علي من قبل السلطان قانصوة أن لا أدخل عدن لدخلت ومثلت بين يديه ، ولكن لا يمكن مخالفة أمر السلطان واستأذن في شحنه ما يحتاجه من الماء والحطب وغير ذلك ، فأذن له الأمير مرجان بذلك ...» [٧٠] ، وبعدها تحرك الاسطول المصري من مياه عدن واتجه الى الهند حيث وصل الى ميناء كجرات الهندي في أواخر سنة ٩١٣ هـ/ ١٥٠٧ م [٧١] ، وتشير المصادر التاريخية الى ان سلطان كجرات مظفر شاه قد رحب بالأمير حسين الكردي حين قدومه [٧٢] وسرعان ما تعاونت معه أساطيل المسلمين في الهند ضد الوجود البرتغالي ، واتحدت هذه القوى الاسلامية تحت قيادة الأمير حسين الكردي ، وبعد ان اشتبك الاسطولان في معركة بحرية تمكن حسين الكردي من تحقيق انتصار رائع على الاسطول البرتغالي في موقعة شول البحرية (Chaul) (*) سنة ٩١٣ هـ/ ١٥٠٨ م ويذكر ان في هذه المعركة كان لورنزوا قائد الاسطول البرتغالي من بين القتلى [٧٣] مما أثار غضب والده فرانسسكو داميدا ودفعه الى ان يقسم قسما كبيرا للانتقام من المسلمين لمقتل ولده [٧٤] وأعد عدته وخرج على رأس اسطول برتغالي مكون من تسع عشرة سفينة واشتبك مع الاسطول المصري وحلفائه في موقعة ديو البحرية في الثالث من شباط عام ٩١٥ هـ/ ١٥٠٩ م دمرت فيها معظم السفن المماليكية والهندية المتحالفة [٧٥] ويذكر زين الدين في تفاصيل مهمة عن هذه المعركة ، ان الاسطول البرتغالي كان قد انتهز فرصة لجوء الاسطول المماليكي والاسطول المتحالف الى جزيرة ديو للتموين ولاصلاح بعض سفنهما ، وقام بمفاجأتهما من الخلف وحدثت معركة بحرية ضارية انتصر فيها البرتغاليون وقتلوا الكثير من بحارة الأمير حسين الكردي وأرغموه على الانسحاب بما تبقى من سفنه والعودة الى جدة لتقوية تحصيناتها وحماية المقدسات الاسلامية حيث انهم كانوا يتوقعون وصول البرتغاليين الى البحر الأحمر [٧٦] .

وقد اختلف المؤرخون في تحليلهم لهزيمة الأمير الكردي أمام البرتغاليين في معركة ديو رغم الانتصارات التى حققها في موقعة شول التى سبقتها بعام تقريبا فقد أشار المليباري في تحفة المجاهدين الى ان سبب ذلك يكمن في الغرور الذى أصاب حسين الكردي وجعله يرفض الاستماع الى نصيحة حاكم ديو الذى أشار عليه بعدم الخروج الى عرض البحر لملاقاة البرتغاليين بل الانتظار في مياه ديو لحماية ظهور السفن [٧٧] كما يشك المليبارى بخيانة حاكم ديو (مالك آياس) لحليفه حسين الكردي واتصاله بالبرتغاليين

(*) يقع ميناء شول (Chaul) على الشاطىء الغربي للهند الى الجنوب من سلطنة كجرات وكان يتبع مملكة الدكن الاسلامية .

بشكل سري ، ومما يؤيد شكوكه ان البرتغاليين لم يتعرضوا لسفن مالك أياس بسوء بل ركزوا هجومهم على السفن المصرية ، كما انه قام بتسليم كل الذين كان حسين الكردي قد قبض عليهم وحبسهم من البرتغاليين زيادة على ارساله الهدايا الى دالميدا من المؤن والذخائر الى الاسطول البرتغالي [٧٨] .

أما المؤرخ البرتغالي باربوسا (Barbosa) فقد علل لجوء حاكم ديو (مالك أياس) الى عقد معاهدة الصلح مع البرتغاليين بسبب ضعفه وإدراكه للأمر الواقع بعد ان أخذ بعين الاعتبار مصلحة بلده لذلك سارع في ارسال رسله الى (دالميدا) ليعبر فيها عن رغبته في السلام [٧٩] .

وبعد ان تحقق للبرتغاليين الانتصار على المصريين في موقعة ديو البحرية زاد نشاطهم في المحيط الهندي ووضعوا أيديهم على مصادر التوابل واحتكروا التجارة هناك وأخذت سفنهم تراقب مداخل البحر الأحمر لمنع السفن الاسلامية من الدخول أو الخروج منه بعد ان تيقنوا من ضعف الاسطول المملوكي وعمدوا الى الاعتداء على المناطق العربية في عدن والبحر الأحمر [٨٠] .

لم تثن عزيمة المماليك الهزيمة التى لحقت بهم في موقعة ديو البحرية عام ٩١٥ هـ/ ١٥٠٩ م بل سعى السلطان الغوري لانشاء اسطول بحري ثان لمواجهة هذا الموقف المتطور ، ومن أجل ذلك اتصل بأطراف مختلفة لاعانته في اعداد حملة السويس الثانية ، ففي أيلول من عام ١٥١٠ م اتصل السلطان الغوري بالبنادقة لمباحثتهم حول امداده بالأخشاب والأسلحة والمعدات اللازمة لبناء سفن الاسطول المصري الجديد ، وبعد ان أرسل البنادقة هذه الامدادات اعترضها فرسان القديس يوحنا وأحرقوا بعضها واستولوا على البعض الآخر ولم تصل الى مصر سفينة واحدة من هذه السفن [٨١] كما اتصل قانصوة الغوري بالسلطان العثماني بايزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢ م) من أجل ان يشترى من العثمانيين ما يحتاجه من أخشاب وأدوات لبناء الاسطول المصري [٨٢] وفي شوال من عام ٩١٦ هـ/ ١٥١١ م استجاب السلطان بايزيد العثماني لطلب قانصوة الغوري ووصلت الى مصر سفن عثمانية عدة وهي تحمل الأخشاب والحديد والبارود والبنادق والكاحل والمجاذيف والسهام والحبال والمراسي وغير ذلك من عتاد الحرب ، وكان مضافا اليها نحو الفين من البحارة العثمانيين بقيادة سلمان الريس للمساعدة في اعداد الاسطول في ميناء السويس والمشاركة في الحملة البحرية المنتظرة الى الهند [٨٣] ، ويشير ابن اياس في حديثه عن حملة السويس الى اهتمام السلطان الغوري بسلمان الريس وجماعته ، فقد ذهب الى السويس بنفسه للاحتفال بانزال سفن الاسطول الى البحر ، ووصف ذلك بقوله : «وكان هناك الريس سلمان العثماني وجماعة من العثمانية البحارة [*] فقصد السلطان اظهار العظمة لأجل جماعة ابن

(*) ينسب ابن اياس أصل هؤلاء البحارة الذين أرسلهم السلطان العثماني والذين رافقوا سلمان الريس الى عثمانيين ومغاربة وان خمسمائة منهم كانوا من المماليك وأولاد الناس (ابن اياس : بدائع الزهور ، حـ ٤ ، ص٤٦٠) .

عثمان حتى قيل : «دخل العسكر الى السويس وهو لابس آلة الحرب وكانت جماعة ابن عثمان هناك نحو ألفي انسان ..» [٨٤] .

وتشير بعض المصادر التاريخية الى ان المماليك كانوا يديمون الصلة بأمراء الممالك الاسلامية في الهند وكانوا يثيرون حماسهم الديني من أجل التعاون معهم ومساعدتهم في تحصين مدينة جدة وحماية المقدسات الاسلامية التى كان البرتغاليون يهددون باستمرار بالوصول اليها وتدميرها ، وقد اسفرت هذه المساعي عن قيام سلاطين الممالك الاسلامية في الهند بتقديم كميات كبيرة من التوابل والاقمشة وغيرها من منتجات «كامباي» شحنت هذه المساعدات على متن ثلاثة مراكب من الهند الى جدة مساهمة منهم في تقوية سور جدة وتحصينها وحمايتها من التهديد البرتغالي [٨٥] .

وزيادة على ذلك كان دخول الاسطول البرتغالي الى البحر الأحمر سنة ٩١٩ هـ/ ١٥١٣ م قد أثار مخاوف القوى المحلية والاسلامية وأحدث رد فعل عنيفا في المنطقة ، مما دفع أمير مكة الشريف بركات للتوجه الى جدة ومخاطبة الغوري وابلاغه بخطورة الموقف والطلب منه الاسراع في ارسال الامدادات الى جدة لمنع نزول البرتغاليين اليها [٨٦] .

ونتيجة للحصار الذى فرضه البرتغاليون على عدن والبحر الأحمر بعد دخولهم المنطقة ومحاصرتها فقد حدثت تطورات وأضرار كبيرة في الاقتصاد المصري وأصبحت تجارة المماليك تواجه ظروفا صعبة ومعقدة أشار ابن اياس اليها في حوادث سنة ٩٢٠ هـ حيث قال : «وكان في تلك الأيام ديوان المفرد وديوان الدولة وديوان الخاص في غاية الانشجاب والتعطيل ، فان بندر الاسكندرية خراب لم تدخل اليه البضائع في السنة الحالية وبندر جدة خراب نحو من ست سنين [٨٧] .

وفضلا عما ذكرناه فان الاسطول المملوكي الذى أعده الغورى في السويس لمواجهة البرتغاليين وحماية البحر الأحمر قد انتهى من اعداده في بداية عام ٩٢١ هـ/ ١٥١٥ م ، وكان حصيلة ذلك العمل بناء عشرين سفينة حربية [٨٨] .

وتتابعت الامدادات العسكرية الى قوات الأمير حسين الكردي ، حيث أرسل الغوري اسطولا آخر في حزيران من عام ٩٢٠ هـ/ ١٥١٤ م ، والحقه باسطول ثالث في تموز من عام ٩٢١ هـ/ ١٥١٥ م بقيادة سلمان الريس [٨٩] ، وتجمعت كل القوات التى أرسلت من السويس في ميناء جدة وظلت فيها طوال شهر رمضان ، ثم أبحرت بعد عيد الفطر وفي السنة نفسها بقيادة الأمير حسين الكردي ويساعده الأمير سلمان الريس [٩٠] .

لكن الحملة المملوكية التى كان هدفها ملاقاة البرتغاليين وطردهم من المنطقة واستعادة سيادتهم السياسية والاقتصادية في البحر الأحمر والمحيط الهندي قد فشلت وانتهى أمرها الى حدوث صراع مرير بين المماليك الجراكسة وبين السلطان اليمني عامر بن عبدالوهاب ، وفشل الاسطول المصري في التوجه الى الهند [٩١] .

ونتيجة لعوامل عديدة كانت قد واجهت

حملة المماليك وغيرت من سياستها وأهدافها وجعلتها تتوقف عند عدن دون ان تواصل هجومها الى الهند ، وتغير سياستها العسكرية من سياسة هجومية الى سياسة دفاعية ، والمتبصر في هذا الأمر يجد ان بعض المصادر التاريخية التى تحدثت عن هذه الحملة ، حددت بعض الاتجاهات التى أدت الى تلك النتيجة وأهم هذه الاتجاهات ما يأتي :

١ ـ تأكيد بعض المصادر التاريخية على ان السبب الرئيسي في عدم تحقيق الأمير حسين الكردي هدفه بالوصول الى الهند هو الخلاف الذى وقع بينه وبين سلمان الريس ، الذى أدى الى انقسام الاسطول المملوكي بحيث توجه سلمان الريس الى زيلع ومنها الى جدة في حين عاد الأمير حسين الكردي الى جدة ، بعد مروره بالموانيء اليمنية الواقعة على ساحل البحر الأحمر ، ومما يستدل على خيانة سلمان الريس ، انفراده بقيادة الاسطول المرابط في جدة وتنفيذه أوامر السلطان سليم بالقبض على الأمير حسين الكردي واغراقه في البحر الأحمر أمام ميناء جدة [٩٢] . وكان ذلك بعد استيلاء العثمانيين على مصر وقضائهم على دولة المماليك الجراكسة .

٢ ـ أما العامل الثاني فهو عدم تعاون السلطان اليمني عامر بن عبدالوهاب ، الذى استنجد بالمماليك في بداية الأمر وخاصة بعد هجوم البوكيرك على عدن سنة ٩١٩ هـ/ ١٥١٣ م [٩٣] ولكنه سرعان ما تراجع عن الوفاء بعهده للغورى بتقديم المساعدات الى الاسطول المملوكي ورفض ان يتخذ الاسطول المصري قواعده في اليمن وكذلك احتجاز السفن الواردة بالمؤن ومنعها من الوصول الى الاسطول المصري في كمران [٩٤] . ونتيجة للأسباب السالفة الذكر قام الغوري بتحقيق ما يريده عن طريق القوة حيث وجه قواته المعدة لمحاربة البرتغاليين للقيام بالسيطرة على بعض الموانيء اليمنية ، بعدها استطاعت هذه القوات السيطرة على المدينة بعد ان لاقت مقاومة عنيفة من سكانها ، مما اضطرها الى الانسحاب من عدن في العام نفسه .

وفضلا عما ذكر من العوامل والاتجاهات التى عرقلت المماليك عن أداء مهمتهم في مواجهة البرتغاليين في الهند فان بعض المؤرخين يشكون في نزاهة الأمير مرجان الظافري حاكم عدن ويتهمونه بالخيانة بسبب عقده الاتصالات مع البرتغاليين واجابته لمطالبهم والتواطؤ مع سواريز قائد الاسطول البرتغالي وتسهيل مهمة دخوله البحر الأحمر الى الحد الذى عرض عليه مفاتيح المدينة [٩٥] .

وخلاصة القول فان موقف المماليك في مصر تجاه الغزو البرتغالي كان ضعيفا بسبب جملة عوامل تعرضت لها دولتهم في بداية القرن السادس عشر الميلادي يمكن اجمالها بما يأتي :

١) اضطراب الأوضاع السياسية لدولة المماليك بسبب الصراعات الداخلية بين الأمراء أنفسهم وحدوث الثورات في الاقاليم التابعة لهم وتعرض السواحل الشمالية لهجمات القراصنة الأوروبيين وعلى رأسهم «فرسان القديس يوحنا» الذين كانوا في جزيرة (رودس) [٩٦] .

وأشار ابن اياس الى ذلك وأوضح بأن

قانصوة الغوري كان أثناء اعداده الحملة لمواجهة البرتغاليين في الهند قد أعد حملتين لاخماد ثورات العربان في الداخل . احداهما أرسلها إلى (الكرك) بالشام والأخرى أرسلها الى (ينبع) بالحجاز [٩٧] .

يضاف الى ما سبق ذكره من أسباب سوء الأحوال الاقتصادية لدولة المماليك بسبب تحول التجارة العالمية عن طريق البحر الأحمر والخليج العربي الى طريق رأس الرجاء الصالح وحرمان دولة المماليك من مصدر مهم من مصادر ثروتها .

٢) والعامل الثاني الذى أثر على موقف المماليك من الغزو البرتغالي هو ان دولة المماليك تمتاز بكونها دولة برية وليست بحرية اذ كان المماليك فرسانا وليسوا بحارة ، ولما كان الصراع بين الطرفين صراعا بحريا لذا استوجب من المماليك بناء اسطول حربي لمواجهة الموقف الجديد مع العلم ان دولتهم لم تكن تملك الأخشاب اللازمة لبناء هذا الاسطول ، بل كانت تجلب الأخشاب والفنيين والصناع من الخارج ، وبشكل خاص من دولة البندقية التى كانت تعاني هي الأخرى من الوجود البرتغالي بسبب انتقال مركز الثقل التجاري الى طريق رأس الرجاء الصالح وتأثر مصالحها التجارية من جراء ذلك [٩٨] .

ومن خلال ما تقدم يتضح للباحث أن الجهود المتواضعة التى بذلها المماليك المصريون في مواجهتهم للخطر البرتغالي كانت بدوافع اقتصادية ، اذ كان يدفعهم الى ذلك رغبتهم الشديدة في حماية تجارة الهند المارة عبر البحر الأحمر والتى كانوا يحصلون من وارداتها سنويا على أرباح طائلة وبشكل خاص تجارة التوابل .

موقف اليمنيين من مواجهة الغزو البرتغالي

ان أهم القوى المسيطرة على البحر الأحمر والمحيط الهندي في مطلع القرن السادس عشر هي مصر في سواحل البحر الأحمر الشمالية واليمن في سواحله الجنوبية [٩٩] وقد تزامن وجود هاتين القوتين مع وصول البرتغاليين الى مياه المحيط الهندي والبحر الأحمر وتحويلهم تجارة الشرق الى طريق رأس الرجاء الصالح الذى أدى الى اضعاف دور البحر الأحمر التجاري والذى أضعف أيضا بدوره الاقتصاد المصري واليمني .

وعند دراسة موقف أهل اليمن من الغزو البرتغالي الذى هدد مصالحهم التجارية نجد ان هذا الموقف كان يتصف بالضعف والتهاون الى الحد الذى يوصف بأنه أقل ايجابية من موقف المماليك في مصر [١٠٠] .

ورغم ذلك فان اليمن اهتمت بالغزو البرتغالي ، ولكن امكانياتها البحرية كانت ضئيلة ، انها لا تملك اسطولا حربيا يقوى على مواجهة القوة البرتغالية [١٠١] . ولم يقف اليمنيون مكتوفي الأيدي تجاه الغزو البرتغالي ، فقد أعد السلطان عامر بن عبدالوهاب في عام (٩١٢ هـ/ ١٥٠٧ م) حملة بحرية على الرغم من ضعف امكانيات اليمن الحربية والمالية ، وكانت هذه الحملة مؤلفة من أربع عشرة سفينة تحمل على ظهرها ستمائة مقاتل [١٠٢] ، وتشير المصادر التاريخية الى ان بعض رجال الحملة كانوا من الفقهاء وطلبة العلم الذين تطوعوا للجهاد ضد البرتغاليين [١٠٣] . الا ان أخبار هذه الحملة البحرية لم يعرف عنها شيء

وأغلب المؤرخين يعتقدون بأن هذه الحملة الصغيرة وقعت فريسة سهلة للبرتغاليين في المحيط الهندي [١٠٤] ، غير ان المؤرخين يشيرون الى ان بعض سفن حملة عامر بن عبدالوهاب قد التحقت باسطول الأمير حسين الكردي في المحيط الهندي [١٠٥] ومن المرجح ان هذه الحملة المتواضعة قد دمرت من قبل البرتغاليين في عرض المحيط الهندي وذلك لأن سفن هذه الحملة كانت عبارة عن سفن نقل عادية لا تتناسب مع السفن البرتغالية الحديثة ، التى تحمل المدافع والأسلحة النارية [١٠٦] في الوقت الذى كان فيه اليمنيون يستعملون السلاح الأبيض في حروبهم حيث انهم لم يعرفوا بعد البنادق والرصاص [١٠٧] .

وبالنظر لأهمية ميناء عدن التجاري وموقعه من مدخل البحر الأحمر فقد عزم البرتغاليون على الاستيلاء عليه ثم السيطرة على جدة من بعده ومن ثم تحقيق التحالف مع الحبشة لكسر شوكة المسلمين هناك [١٠٨] . وخططوا لتحقيق أهدافهم العدوانية التوسعية للسيطرة على عدن بعد ان تمت لهم السيطرة على جميع مراكز تجارة التوابل من (ملقا) الى هرمز الى سوقطرة .

وفي عام ٩١٩ هـ/ ١٥١٣ وصلت السفن البرتغالية الى ميناء عدن حيث استولوا على السفن الراسية فيه وباشروا في قصف المدينة بنيران مدفعيتهم [١٠٩] وقد أخاف هذا العمل حاكم عدن وخشى تدمير البلاد فأرسل بعض الهدايا الى قائد الحملة وطلب منه عقد الهدنة الا ان البرتغاليين رفضوا طلب حاكم عدن مرجان الظافري وأنذروه بتسليم المدينة وهددوه بالاستيلاء عليها بالقوة [١١٠] لكن أهل عدن رفضوا الاستجابة للتهديد البرتغالي واستبسلوا استبسالا رائعا للدفاع عن بلدهم بالهجوم على البرتغاليين الذين تسلقوا أسوار المدينة حيث أجبروهم على الهرب منها والعودة الى سفنهم خائبين دون ان يحققوا هدفهم بالاستيلاء على عدن [١١١] .

وتشير بعض المصادر التاريخية الى ان السلطان عامر بن عبدالوهاب حاكم اليمن كان قد أرسل جنوده لمساعدة حامية عدن وان الأمير مرجان الظافري أمر بتحصين المدينة جيدا وكذلك طلب من اليمنيين عدم منازلة البرتغاليين في معركة بحرية نظرا لقوة الأساطيل البرتغالية [١١٢] وبعد ان فشل البرتغاليون في حملتهم هذه غطوا فشلهم بتدمير السفن الراسية في الميناء ثم انسحبوا بعدها نحو باب المندب [١١٣] .

وأورد ابن الديبع في حوادث ٩١٩ هـ/ ١٥١٣ م تفصيلات مهمة عن موقف أهل اليمن من الغزو البرتغالي حيث قال : «وفي أثناء المحرم من سنة تسع عشرة وتسعمائة ، وصل العلم الى مولانا السلطان بقدوم ثمانية عشر مركبا الى بندر عدن فيها جمع عظيم من الأفرنج ، فجهز السلطان عسكرا الى ثغر عدن وأمر بالتخطيط والتحرز فيه وفي سائر البنادر ، وأمر بالقنوت عليهم بالصلوات الخمس وفي خطبة الجمعة ... فركب مرجان ولم يكن بها فارس غيره ، فقاتلهم وقاتل معه أهل المدينة ، فنالوا من المسلمين ، ثم كانت الدائرة عليهم ، فهزموا هزيمة منكرة وقتل منهم جماعة ، فرجعوا منهزمين لا يلوون على أحد ، وانكسر جمعهم وأخذت دروعهم وسلاحهم وأصبح حزب الله هم الغالبون [١١٤] .

وبعد ان فشل البوكيرك في مهاجمة جدة عاد ثانية الى جزيرة كمران فبقى فيها أكثر من شهرين [١١٥] ، ولما تعذر عليه الاتصال بحلفائه الاحباش المسيحيين عمل خطته التدميرية في موانىء البحر الأحمر التى وصلها في عودته حتى وصل عدن ثانية فضربها بالمدفعية [١١٦] ، الا ان أهلها أبدوا بطولة رائعة وشجاعة فائقة وحماسا شديدا في الدفاع عنها ، وأكد ذلك ابن الديبع في الفضل المزيد بقوله : «... ثم انهم نزلوا ليلافي السنابيق ففطن بهم أهل عدن ، فخرجوا لهم خفية وثاروا عليهم فهزموهم وقتلوا منهم جماعة وجرحوا أخرين . فلما انقطع رجاءهم من المدينة وتحققوا ان حزب الشيطان لا يقاوم حزب الرحمن رحلوا خائبين ..» [١١٧] واستطرد ابن الديبع في وصفه شجاعة اهل اليمن وبطولتهم اذ قال : «وقد استعد أهل عدن بسلاحهم ورتبوا في الساحل ، فنزلوا من سنابيقهم الى العراء رجاله مستعدين للحرب بالسلاح وغيره ... فلما نزلوا بالساحل ثار عليهم المسلمون من كل جانب وضربت المدافع من البلد ومن مراكبهم وكانت صيحة عظيمة وفتنة قوية فنصر الله المسلمين ...» [١١٨] .

وعلى اثر هذه المقاومة التى نظمها الأمير مرجان الظافري ضد الغزو البرتغالي في عدن فقد خابت آمال البوكيرك وفشلت أهدافه العدوانية التى كان يسعى بموجبها الى التنكيل بالمسلمين من جهة وارضاء الأحباش الذين أراد ان يكونوا عملاء تجاريين في منطقة البحر الأحمر من جهة ثانية .

وكان لأهل عدن تاريخ يذكر في مقاومة الحملة البرتغالية التى قادها لوبو سواريز (Lopo Soares) عام ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧ م ، والتى استغل فيها البرتغاليون الصراع الذى كان قائما بين المماليك وحاكم اليمن ، كما انهم كانوا على علم بالأضرار البالغة التى لحقت بحامية عدن وبتحصيناتها الدفاعية من جراء هذا الصراع . فعند وصول حملة سواريز الى سواحل ميناء عدن أعلن انه جاء لمساعدة أهل اليمن ضد المماليك الجراكسة [١١٩] . وبعد ان وصل الى ميناء عدن ، اجتمع الأمير الظافري بوجهاء مدينة عدن وبعد التشاور معهم اتفقوا على تسليم المدينة للبرتغاليين حفاظا عليها من الدمار والخراب وكذلك لأرواح سكان عدن [١٢٠] واذا كان هذا القول صحيحا فان تفسيره يعزى لثلاثة أسباب لا بد من ذكرها .

١) استياء أهل عدن من المماليك الذين دمروا تحصينات المدينة بمحاولاتهم المتكررة لغزو عدن وتخريبها ، وانهم أرادوا من تحالفهم مع البرتغاليين ازعاج المماليك واغاظتهم ، كما ان هناك احتمالا ، مفاده ان أهل عدن كانوا يفضلون ان يجابهوا عدوا واحدا من ان يجابهوا عدوين قويين .

٢) ربما ان الأمير مرجان الظافري كان يعرف ان اهتمام البرتغاليين ليس بمدينة عدن فقط وانما الاندفاع داخل البحر الأحمر للوصول الى مدينة جدة وتدميرها لذلك عمد الى اتباع سياسة المهادنة لاستغلال الوقت واكمال تحصينات المدينة والاستعداد للدفاع عنها ، كما حصل فيما بعد .

٣) اما الاحتمال الأخير فهو أن مرجان

عرض تسليم عدن على البرتغاليين ليثير المصريين ويدفعهم الى القيام بهجوم قد يحطم قوى الطرفين أو على الأقل يحطم طرفا ويضعف الطرف الآخر فيستطيع مرجان ان يقاوم الطرف المنتصر بعد اعادة تحصينات عدن .

ومن جانب آخر تشير بعض المصادر التاريخية ان الظافري استقبل البرتغاليين والدموع في عينيه من الذل والقهر ، ولكن لوبو سواريز جعل المدينة بيد الظافري وأجل الاستيلاء عليها الى حين رجوعه من جدة [١٢١] . وفي هذه الأثناء استغل الأمير مرجان الظافري فرصة انشغال البرتغاليين في مطاردة الاسطول المصري داخل البحر الأحمر وعمل جاهدا على تقوية تحصينات الميناء واصلاح ما ضربه الاسطول المصري كما انه استطاع تعبئة رجال القبائل من المناطق المحيطة بعدن وتنظيمهم للدفاع عنها ، فضلا عن ذلك فقد وصلت النجدة العسكرية من مدينة الشحر .

وعند عودة سواريز الى عدن بعد فشله في مهمته طلب من الظافري تسليم المدينة الا ان هذا الأخير رفض طلب سواريز وهو واثق من قوة مواقعه الدفاعية ، لذلك غادر سواريز عدن الى ميناء بربرة الصومالية وأحرقها تغطية لفشله الذريع في حملته [١٢٢] .

يلاحظ مما تقدم انه تم للبرتغاليين خلال هذه الفترة السيطرة على مصادر التجارة في الهند ، جزر الهند الشرقية وساحل افريقيا الشرقية ، كما انهم نجحوا في نقل المعركة البحرية الى المناطق العربية نفسها سواء أكانت في الخليج أم في البحر الأحمر ، كما ان جهود هذه القوى المحلية من مماليك ويمنيين قد انتهت بالفشل في ايقاف النشاط البرتغالي البحري أو منع تحول التجارة الى طريق رأس الرجاء الصالح وانتهى صراع القوى المحلية الى فقدان مصر واليمن استقلالهما ووقوعهما تحت السيطرة العثمانية.

الهوامش

(١) زين الدين المليباري : «تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين» (لشبونة ـ ١٨٩٨ هـ) ص٣٧ .
(٢) المصدر السابق ، ص٢٢ .
(٣) المليباري : المصدر السابق ، ص٣٧ .
(٤) صفوت بك : «وثائق تركية» ص٣ .
(٥) المصدر السابق ، ص١٦ .
(٦) محمود السمرة : «الصراع بين العرب والبرتغاليين في شرق افريقيا» مجلة العربي : الكويت العدد/٥٩ سنة ١٩٦٣ ، ١٣٢ .
(٧) صفوت بك : المصدر السابق ، ص١٦ .
(٨) جواد دى بروس : «الوثائق البرتغالية» العشارية الثانية ـ القسم الأول ص١ .
(٩) عبدالعزيز محمد الشناوي : «معالم الوجود البرتغالي في شرقي الجزيرة العربية» لجنة تدوين تاريخ قطر ـ حـ٢ ـ ١٩٧٦ ـ ص٦٢٥ .
(١٠) Serjeant : Ibid, p. 42
(١١) صفوت بك : المصدر السابق ، ص٦ ، أنظر أيضا عبدربه : المصدر السابق ص٣٠٧ .
(١٢) Serjeant, Op, Cit, p.169
(١٣) شهاب : «فن الملاحة عند العرب» ص٤٦ .
(١٤) Serjeant : Op, Cit, p.169
(١٥) الغول : المصدر السابق ، ص١٠٨ .
(١٦) محمود : المصدر السابق ، ٢٢١ .
(١٧) Serjeant : R.B : OP, Cit, p.14
(١٨) Ibid : P.110
(١٩) Serjeant: R.B. Ibid,P.136

(٢٠) محمود السمرة : المصدر السابق ، ص١٣٣ .
(٢١) جوا دي بروس : «الوثائق البرتغالية» الفصل الثاني ص٩١ ـ ٩٤ ، ٩٥ ـ ١٢٢ .

(٢٢) Serjeant : R.B : Ibid, P. 110.
(٢٣) شارل ديل : «البندقية جمهورية ارستقراطية» ص١٤٨ ـ ١٤٩ .
(٢٤) شارل ديل : المصدر نفسه ، ص١٤٩ .
(٢٥) Serjieant : R.B : OP, Cit, P. 112.
(٢٦) سالم : المصدر السابق ، ص٥٣ .
(٢٧) أبو محزمة : «تاريخ عدن» حـ١ (ليدن ـ ١٩٣٦) ص١٢ ـ ١٣ .
(٢٨) المصدر نفسه ، ص١٦ ـ ١٧ .
(٢٩) أحمد دراج : «المماليك والأفرنج» ص١٥٥ .
(٣٠) Duarto Barbosa: Adesscription of the coast of East Africa and Malabar in the beginning of the Sixteenth century, Translated by Henry E.J. Stanley (London - 1918) P. 50.
(٣١) IBID, P, 51.
(٣٢) Serjeant : OP, Cit, P. 169.
(٣٣) صفوت بك : «الوثائق التركية» ص٨ .
(٣٤) سالم : المصدر السابق ، ص٧٣ .
(٣٥) صفوت بك : المصدر السابق : ص١٢ .
(٣٦) قاسم : المصدر السابق ، ٢١٦ .
(٣٧) Serjeant : R.B : Ibid, P. 169.
انظر كذلك محمود : المصدر السبابق ، ٢٢٣ .
(٣٨) قاسم : المصدر السابق ، ٢١٦ .
(٣٩) سالم : المصدر السابق ، ص٨٩ .
(٤٠) Serjeant, R.B OP, Cit, P. 170.
كذلك قاسم : المصدر السابق ص٢١٧
(٤١) Serjeant, R.B : Ibid, P. 170.
انظر ايضا : السمرة : المصدر السابق ص١٣٢
(٤٢) صفوت بك : المصدر السابق ص٣ .
(٤٣) Bell, OP, Cit, P. 415.
(٤٤) Serjeant, OP, Cit, P. 16.
(٤٥) Serjeant, Ibid, P. 16.
(٤٦) Bell : OP, Cit, P. 415.
(٤٧) الشناوي : المصدر السابق ، ص٦٣٥ .
(٤٨) Serjeant : OP, Cit, P. 2.
(٤٩) سونيا هاو : المصدر السابق ، ص١٠٧ .
(٥٠) شارل ديل : «البندقية جمهورية ارستقراطية» ص١٤٧ .

(٥١) ابن اياس : «بدائع الزهور» حـ٤ ، ١٩٨ .
(٥٢) دراج : المصدر السابق ، ١٣٧ .
(٥٣) سالم : المصدر السابق ، ٦٠ .
(٥٤) ابن اياس : المصدر السابق ، ١٩٨ .
(٥٥) المليباري : المصدر السابق ، ص٣٨ .
(٥٦) المليباري : المصدر السابق ، ص٤٠ انظر أيضا Barbosa, OP, Cit, P. 47

(٥٧) النهروالي : المصدر السابق ، ص١٩ .
(٥٨) ابن اياس بدائع الزهور ، حـ ٤ ، ١٨٢ .
(٥٩) سالم : المصدر السابق ، ص١٦ .
(٦٠) ابن أياس : المصدر السابق ، ص٨٥ .
(٦١) النهروالي : البرق اليماني ، ص١٠ .
(٦٢) ابن اياس : المصدر السابق ، ص٩٦ .
(٦٣) المصدر نفسه ، ص٩٦ .
(٦٤) المصدر نفسه ، ص٨٤ ـ ٩٦ .
(٦٥) The Itinerary Ludovico de varthema of Bologna from 1502-1508, translated from the Original Italian, John Winter Jones (London - 1928 P.18).
انظر كذلك محمود : المصدر السابق ، ص٢٢٥ .
(٦٦) ابن أياس : «بدائع الزهور» حـ ٤ ، ص٩٦ .
(٦٧) أبو محزمة : «البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه» ص١٠٣ ، أنظر كذلك ابن الديبع «قرة العيون بأخبار اليمن الميمون» حققه وعلق عليه محمد بن علي الخوالي (القاهرة ـ ١٩٧٧) حـ ٢ ، ص٢١١ .
(٦٨) سالم : المدر السابق ، ص٦٢ .
(٦٩) أبو محزمة : المصدر السابق ، ص١٠٩ .
(٧٠) المصدر نفسه ، ص١٠٨ .
(٧١) النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني ص٣٠ .
(٧٢) ابن اياس : «بدائع الزهور» حـ ٤ ، ص١٤٢ .
(٧٣) المليباري : المصدر السابق ص٤٠ ـ ٤١ .
(٧٤) فهمي : المصدر السابق ، ص٣٠ ـ ٩١ .
(٧٥) المليباري : المصدر السابق ، ص٤١ .
(٧٦) ابن اياس : «بدائع الزهور» حـ ٤ ص٢٨٦ . انظر كذلك احمد دراج : المماليك والافرنج» ص١٣٧ ـ ١٣٨ . وسعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص١٧٨ .
(٧٧) المليباري : المصدر السابق ، ص٤١ .

(٧٨) المصدر نفسه .
(٧٩) Barbosa : OP, Cit, P. 61.
(٨٠) Stripling, G., W.F: The Ottoman Turks and the Arabs, 1511-1574. U.S.A. Urpana, University, of Illinos Press, 1942, P.31.
(٨١) ابن اياس : «بدائع الزهور» حـ ٤ ، ص١٩١ ـ ١٩٢ .

(٨٢) ابن اياس : «بدائع الزهور» حـ ٤ ، ص١٩٦ .
(٨٣) ابن أياس «بدائع الزهور» حـ ٤ ، ص٢٠١ .
(٨٤) المصدر نفسه ، حـ ٤ ، ص٣٦٥ .
(٨٥) جوا دي بروس : «الوثائق البرتغالية» العشارية الثانية ـ الجزء الأول ، الفصل الثالث ، ص٢٤ ـ ٤١ .
(٨٦) ابن اياس : «بدائع الزهور» ، حـ ٤ ، ص٣٠٧ ـ ٣٠٨ ـ ٣١٠ .
(٨٧) المصدر نفسه ، حـ ٤ ، ص٣٥٩ .
(٨٨) ابن اياس : «بدائع الزهور» ، حـ ٤ ، ص٣٦٥ .
(٨٩) ابن آياس : «بدائع الزهور» حـ ٤ ، ص٤٦٦ .
(٩٠) صفوت بك : المصدر السابق ، ص٣ .
(٩١) ابن الديبع : «قرة العيون» حـ ٢ ص٢٢٤ ـ ٢٢٦ ، أيضا النهروالي البرق اليماني .
(٩٢) النهروالي : البرق اليماني ، ص٢٦ ـ ٢٧ .
(٩٣) سالم : المصدر السابق ، ص٨١ .
(٩٤) النهروالي : المصدر السابق ، ص٢٠ ـ ٢٣ .
(٩٥) صفوت بك : المصدر السابق ، ص٤ .
(٩٦) ابن اياس : «بدائع الزهور» ، حـ ٤ ص٢٢٠ . انظر أيضا سالم : المصدر السابق ، ص٧٦ .
(٩٧) المصدر نفسه ، حـ ٤ ، ص٨٢ .
(٩٨) Stripling : Op, Cit, P. 32.
(٩٩) Tome Pires : Op, Cit, P. 5.
(١٠٠) Mr, Abir : Ethiopa And The Bed Sea, London, 1980, P— 110.
(١٠١) Ibid : P. 112.
(١٠٢) ابن الديبع : «قرن العيون بأخبار اليمن الميمون» ص٢١١ .
(١٠٣) سالم : المصدر السابق ، ص٥٨ ـ ٥٩ .
(١٠٤) نفس المصدر والصفحة .
(١٠٥) Abir : OP, Cit, P. 112.
(١٠٦) سالم : المصدر السابق ، ص٥٩ .
(١٠٧) حمزة علي ابراهيم لقمان : ««تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية» دار مصر

للطباعة ، ١٩٦٠ ، ص١٢١ .
(١٠٨) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية) ص١٤٩ .
(١٠٩) أبو محزمة : المصدر السابق ، ص١٢ ـ ١٣ .
(١١٠) المصدر نفسه ، ص١٦ ـ ١٧ .
(١١١) Tome Pires : OP, Cit, P. 15.
(١١٢) لقمان : المصدر السابق ، ص١١٧ .
(١١٣) نفس المصدر والصفحة .
(١١٤) أبو محزمة : المصدر السابق ، ص١١٩ .
(١١٥) Serjeant : OP, Cit, P. 170.
(١١٦) لقمان : المصدر السابق ، ١١٨ .
(١١٧) أبو محزمة : المصدر السابق ، ص١٢٥ .
(١١٨) المصدر نفسه : ١٢٦ .
(١١٩) شهاب : فن الملاحة عند العرب ، ص٤٨ .
(١٢٠) بامطرف : المصدر السابق ، ص٥٥ .
(١٢١) شهاب : المصدر السابق ، ٤٩ .
(١٢٢) بامطرف : المصدر السابق ، ص٥٦ .